دراسة وتحليل

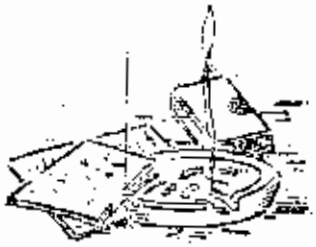

الأمير ابن سنان الحلبي

٤٢٣ — ٤٦٦ هـ

للأستاذ محمد علي الدرويش

— ١ —

أحاول أن أقدم في هذه الكلمة الموجزة دراسة موجزة للأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي الشاعر العالم الأديب الذي أهمله الباحثون حقبة طويلة من الزمان ، ولم يعنوا بدراسة حياته ، وآثاره الأدبية الرائعة . وابن سنان في رأينا مفكر وأديب من طراز فاخر ، وهو فيما نرى من أجدر الأدباء والنقاد بالبحث والدراسة . فهو شاعر مطبوع ، وكاتب موهوب ، وأديب ممتاز ، وناقد متذوق ، وعالم جليل من الذين خدموا البلاغة العربية خدمة لا تقدر بقيمة . وإن كتابه « سر الفصاحة » لمن خيرة المراجع العربية في بحوث النقد البلاغي ، والأدب العربي ، وهو كتاب مشهور بين العلماء ، ومشهود له بالأصالة والابتكار والجدة ، وقد أشاد ابن الأثير في مطلع كتابه « بكتاب سر الفصاحة » هذا وأمره بتحليله في غير البلاغة ، كما تعقب آراءه بكثير من النقد والشرح والتعليل .

وقد ترك ابن سنان ديواناً من الشعر القيم ، وأشعاره فيه محلوة بالمعاني والأفكار العقلية . وإن القارئ ليستشف من ورائها روحه الثائرة ونفسه الطموح ، وعزيمته الصادقة ، تحركها آمال وأحلام كبيرة في الحياة .

— ٢ —

ولد ونشأ وعاش ابن سنان في مدينة حلب الشهباء ، عاصمة دولة الحمدانيين ، ومهد الفلاسفة والعلماء والأدباء والكتاب والخطباء والشعراء .

وكانت مركزاً من مراكز الحضارة العربية ، وحفلت بأعلام الفكر والأدب في القرنين الرابع والخامس الهجري ، وفيها عاش سيف الدولة الحمداني ، وأبو فراس ، وابن خالويه اللغوي النحوي المتوفي عام ٣٧٠ هـ ، وعبد الرحيم بن نباتة المتوفي عام ٤٠٥ هـ وخطيب جيوش سيف الدولة المفوّه ، وإليها هاجر أبو الطيب المتنبي الشاعر العظيم ، والفارابي الفيلسوف المتوفي عام ٣٣٩ هـ ، ومجوارها في سمرة النماذ ، ولد ونشأ وعاش المعري الشاعر الفيلسوف المتوفي عام ٤٤٩ هـ وهو شيخ شاعرنا ابن سناء .

ومن شعرائها ، الناهي والناشي الأصغر ، وأبو القاسم الزاهي ، وأبو الفرج البغاء . وتلك هي حلب موطن ابن سناء — فضلاً عن بيئة الشام الأدبية عامة ، التي تأثر بها ابن سناء ، ومن حفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة ، كأبي طالب الرقي ، والطغرائي الشامي ، وعبد المحسن الصوري وأبي الرقعمق ، وسواهم من الشعراء والخطباء .

هذه هي البيئة الأدبية التي عاش فيها ابن سناء ، وتنقل في ربوعها حاملاً في أعماق نفسه نزعاته الحرة العصبية ، وطبعه العربي السليم الفطرة ، الذي ورثه مع مأثورات من أمجاده وآبائه العامريين القيسيين ، فلا عجب أن تبعث في نفسه هذه الوراثات حب الأدب وتذوقه والإجادة في نظمه إجادة فاق فيها أقرانه ومعاصريه .

— ٣ —

كان ابن سناء من سلالة بني خزن الخفاجيين أحفاد خفاجة بن عمرو بن عقيل . وهم قبيلة كبيرة لها تاريخها الحافل في الحياة العربية قبل الإسلام وبعده ، وقد كان موطنهم في نجد ثم في جزيرة الفرات بالعراق ، وقد رحلت فروع منهم إلى حلب ، واستقروا فيها ، لقربها من هذه البلاد ، وشهرتها الأدبية والسياسية في التاريخ الإسلامي . ونحن لا ندري متى استقروا فيها بالضبط ، ولعل ذلك قد كان في أول القرن الثالث الهجري ، أو قبل ذلك بقليل ، كما يرجح مؤلف كتاب « بنو خفاجة » وتاريخهم السياسي والأدبي الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي .

وقد تغنى الشاعر بمجد جده سناء الخفاجي العقيلي العامري الذي كان له مجده في قومه ، فانظر إليه يقول في تهديد بعض خصومه :

مهلاً فإنك ما تعد « مباركاً » خالاً ، ولا تحصى « سناناً » والداً
بيت له النسب الطويل وغيره دعوى ، تريد أدلة وشواهدا

ولا نعلم شيئاً عن سيلاة ابن سنان . ولكننا نجد في ديوانه قصيدة نظمها عام ٤٤٣ هـ وفيها هذان البيتان :

وقور إذا طرقتني الخطوب ... وسل من الخوف عقد النهى
بعشرين أنفقتها في الصدود ... وجدت بها في زمان النوى

يقول إنني أضحت من عمري عشرين عاماً ، وأنا أقارع فيها الخطوب الملمة وقد آثرت فراق الآباء والأجداد ، في جلد وصبر ووقار . فعمره في عام ٤٤٣ هـ كان عشرين عاماً ، وعلى هذا يكون مولده حول عام ٤٢٣ هـ . ويؤيد ذلك رسالة كتبها ابن بطلان إلى صديق له عام ٤٤٠ هـ يسأله فيها طلب ويقول : « إن فيها شاباً أحداً يعرف بأبي محمد ابن سنان الخفاجي ، قد ناهز العشرين وعلا في الشعر طبقة المحكمين [1] »

— ٤ —

نشأ الأمير ابن سنان — كما سبق أن ذكرنا — نشأة علمية ، وأدبية كبيرة ، وكان من تلاميذة أبي العلاء المعري ، المفرطين . وقد أهلته هذه النشأة ليكون فيما بعد : العالم الكبير ، والشاعر البليغ ، والمؤلف الذي لا تزال اللغة العربية تفخر بتراثه العظيم « سر الفصاحة » وبديوان شعره الذي يصوّر آباءه وطموحه ، وتطلعه الدائم إلى المجد والسلطان السياسي . وقد عاش في ظل دولة بني صالح بن مرداس الكلابيين الحلبيين ومدح أمراءهم ورجال دولتهم بشعره ، وتوثقت صلاته بهم طول حياته الى حد بعيد . ومن مدحهم — من أمراء هذه الدولة — أبو سلامة بن صالح بن مرداس الكلابي ، وذلك حيث يقول : —

فتى وجده النبع حيث الخيام ... ومن روحة المجد يثني الوشي
مدحتك بالخطب سلك الوداد ... إذا حاول القوم منك الغنى
ولي في نخساركم شعبة ... وفي الأفق بدر الدجى والسها

وهو في هذه القصيدة يرسم لنا صورة لنفسه الأبية الطموح ، ولمجد قومه وأسرته بني خفاجة العامريين — أبناء عمومة أسرة حلب الحاكمة من بني كلاب العامريين ، وقد اتصل بعز الدولة الكلابي ، ومدحه بقصيدة ، منها : —

وآمالي مطوحة بناه ... يذارع دونها قدر مطول
وما يسمو الزمان إلى قراعي ... وإن جنابكم أبداً ظليل

(١) رواها معجم البلدان في الكلام على حلب ، ونقلها عنه مؤلف « أعلام النبلاء » ج ١ ص ٣٠٠

وفي هذه القصيدة — كما في سابقتها — يصوّر لنا طموحه ورغبته في المجد السياسي وغمار الولايات ، لا طمعاً في مال وثروة ، وهو يكرر هذا المعنى في أكثر شعره ، وبحيث يظهر لك في وضوح وجلاء : —

يظن العدى اني مدحتك للغنى وما الشعر عندي من تريح المكاسب
أعني على نيل الكواكب في العلا فأنت الذي صيرتها من مآربي

وقد سافر الشاعر من حلب الى القسطنطينية عام ٤٥٣ هـ ، وهو في سن الحادية والثلاثين ، ولا ندري سبب هذه الرحلة ولا ظروفها .

وقد أرسل الأمير من هناك الى اخوانه في حلب أربع قصائد ، يقول في أولاها .

وا أسفي من رحلة طوحت فيها الى الروم الأعاديب
قادني الدهر إليها ومن يجاذب الأقدار مغلوب

ومنها يمدح بني ملهم : —

ذوائب من عامر ضمها بيت على الجوزاء مضروب
لهم إذا أمهم سائل فن من الجود وأسلوب
أبعدني منك زمان له في طلبي رغد وتقريب

وفي القصيدة الثانية من هذه القصائد دعابة ورقة ، وخصلة روح أرسلها من القسطنطينية يداعب بها بعض اخوانه وأبناء صومعته ، وذلك حيث يقول : —

أأغيب عن حلب ثلاثة أشهر لم تكتبوا فيها الي بلفظة
فتم شغلنا بالحصار وسدنا ما كان بعدك من عز الدولة
لو شئت أهرب مرة من عندكم ما كنت أقصد غير قسطنطينية

ولا يزال به وجيه وإلمامه في هذه القصيدة حتى يختمها بهذا البيت البالغ حد الروعة :

صاح الغراب بنا فقرّق شملنا قد رمت فيه المطوب فأصمت

وفي بحوث لا تزال خطية ، يعدها للنشر مؤلف كتاب « بنو خفاجة » التي أشرنا اليه ، ما يشير الى أن هجرة الأمير ابن سنان هذه ، كانت لأغراض سياسية خاصة ، وتوطيد العلاقات بين دولة « حلب » و « قياصرة الروم » في القسطنطينية ، لصد الغزو الفاطمي عن حلب .

[يتبع]